



طالما تحدّث أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - عن ضلال التتار الذين انتسبوا إلى الإسلام، فكشف عمّا هم عليه من زندقة ونفاق وخرق عن شرائع الإسلام، واستبداد وبغى وعدوان على أهل الإسلام والسنّة، وحرّض على جهادهم بالمقابل والفعال.

لقد أدرك أبو العباس أذى التتار منذ كان طفلاً صغيراً، حتى اضطر أبوه إلى مفارقة حرّان والهجرة به وبإخوته إلى دمشق، وساروا بالليل على خوف من التتار، وكاد التتار أن يلحقوا بهم لكن القوم ابتهلوا إلى الله وحده، فنجوا وسلموا [1]. وأهم أبو العباس شأن التتار وما كانوا عليه من مروق وطغيان وكيد وإذلال لأهل الإسلام، فأظهر ابن تيمية حقيقة التتار، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم، وفصل في توصيف حالهم بعلم وعدل، فأزال اللبس والإشكال في واقعهم والحكم عليها، وكما قال السائل لابن تيمية: «فإن أمرهم قد أشكل على كثير من المسلمين، بل على أكثرهم، تارةً لعدم العلم بأحوالهم، وتارةً لعدم العلم بحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في مثلهم» [2].

فيبيّن رحمه الله أن أولئك التتار الذين يدعون الإسلام قد أعطوا الأمان لأهل الشام سنة 699هـ ثم غدروا بهم، وسبوا قرابة مئة ألف من المسلمين [3]، وفجروا بخيار النساء في المساجد.

لقد عاين أبو العباس ضلال التتار ونفاقهم وسائل أحوالهم، ومن ذلك قوله: «قد شاهدنا عسکر القوم، فرأينا جمهورهم لا يصلون.. ولم يكن في دولتهم إلا من كان من شر الخلق إما منافق، وإما من هو من شر أهل البدع كالرافضة والاتحادية والجهادية، وإما من هو من أفجر الناس وأفسقهم».

ويسوقون بين محمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم وأكرم الخلق وخاتم النبيين، وبين جنكسخان وهو ملك كافر مشرك من أعظم المشركين كفراً وفساداً.

ويعتقد التتار أن جنكسخان ابن الله، وأن دين الإسلام كدين اليهود والنصارى، وأن هذه كلها طرق إلى الله بمنزلة المذاهب الأربعية عند المسلمين.

وبالجملة فما من نفاق وزندقة وإلحاد إلا وهي داخله في أتباع التتار؛ لأنهم من أجهل الخلق وأقلهم معرفة بالدين، وأبعدهم عن اتباعه»[4].

وقال في موطن آخر: «ال بتار وأشباههم أعظم خروجاً عن شريعة الإسلام من مانعي الزكاة والخوارج.. فمن شك في قتالهم فهو أجهل الناس بدين الإسلام»[5].

إن فتاوى ابن تيمية بشأن حال التتار والحكم عليهم لتقدم مثلاً رائعاً، ومسلكاً فريداً في التعامل مع التوازن المشكلة الحاضرة، والتي تحاكي واقع التتار، فقد استصحب ابن تيمية واستوعب الأوصاف المؤثرة في الحكم، واستبعد ما لم يكن كذلك، فجاءت فتاواه في التتار غاية في العدل والتحقيق، والعلم والتوثيق.

- ثم إن أهل الشام لما هزموا على يد التتار في وقفة قازان سنة 699هـ، أصابهم هلع شديد وخوف كثير، حتى قال ابن تيمية: «دخل على أهل الإسلام من الذل والمصيبة بمشارق الأرض ومقاربها ما لا يعلمه إلا الله»[6].

ولقد عاين المؤرخ ابن كثير مشاهد الرعب بدمشق، فوصفها وصفاً بليغاً، فقال: «ولزم الناس منازلهم.. وكانت الطرق لا يُرى بها أحد إلا القليل، والجامع لا يصلى فيه أحد إلا اليسير، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده إلا بجهد جهيد، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج في ثياب زيه [أي زي التتار] ثم يعود سريعاً، ويظن أنه لا يعود إلى أهله، وأهل البلد قد أذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»[7].

وتضاعف الرعب سنة 700هـ لما وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وطاشت عقول الناس وألبابهم[8]، «وكان الناس في خوف ورعب لا يعبر عنه»[9]، بل إن علائق الخوف من التتار ورواسب الهلع منهم ظلت باقيةً حتى بعد هزيمة التتار في وقعة شقحب شهر رمضان سنة 702هـ كما قال ابن كثير: «وصارت كسرة [هزيمة] التتار تقوى وتتزايده قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون»[10].

ومع هذا الواقع المشحون بالرعب والهلع، وغلبة اللبس والإشكال في حكم التتار والموقف منهم، ولحوق أمراء وعلماء وعُباد بالttار.. إلا أن أبا العباس أفتى بوجوب جهاد التتار، وحرّض الأمراء والعلماء وال العامة على جهادهم، وشارك في ذلك بأعمال جليلة وتضحيات كبيرة.

فمن تقريراته في جهاد التتار: «قتال هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين، وما يشك في ذلك من عرف دين الإسلام وعرف حقيقة أمرهم، فإن هذا السلم»[11] الذي هم عليه ودين الإسلام لا يجتمعان أبداً»[12].

«إن قتال المعذين الصالحين ثابت بالسنة والإجماع، وهؤلاء معذبون صائدون على المسلمين في أنفسهم، وأموالهم، وحرّمهم، ودينهم»[13].

وكانت شجاعة أبي العباس تجاه التتار «شجاعة خالدية» تُضرب بها الأمثال، وتسير بها الركبان، فقد خاطب قازان قائلاً: «أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام فغزوتنا، وأبوك وجده هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فدرت...»[14].

كما أن أبا العباس خرج إلى بولاي[15] - أحد قادة التتار - في فكاك أسرى المسلمين، فاستنقذ كثيراً من أيديهم[16]، بل طالبه بإطلاق أسرى أهل الذمة، قال ابن تيمية - مخاطباً ملك قيرص النصراني - : «وقد عرف النصارى كلهم أني لـما خاطبـتـ التـتـارـ فيـ إـطـلـاقـ الأـسـرـىـ،ـ وـأـطـلـقـهـمـ قـازـانـ،ـ وـقـطـلـوـشـاهـ»[17]ـ،ـ وـخـاطـبـتـ مـولـايـ فـيـهـمـ فـسـمـحـ بـإـطـلـاقـ الـمـسـلـمـينـ،ـ قـالـ لـيـ:ـ لـكـ مـعـنـاـ نـصـارـىـ أـخـذـنـاـهـ مـنـ الـقـدـسـ،ـ فـهـؤـلـاءـ لـأـطـلـقـوـنـ،ـ فـقـلـتـ لـهـ:ـ بـلـ جـمـيـعـ مـعـكـ مـنـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ،ـ الـذـينـ هـمـ أـهـلـ ذـمـةـنـاـ،ـ فـإـنـاـ نـفـنـكـهـمـ،ـ وـلـأـنـدـعـ أـسـيـرـاـ،ـ لـأـنـدـعـ أـهـلـ ذـمـةـ،ـ وـأـطـلـقـنـاـ مـنـ النـصـارـىـ مـاـ شـاءـ اللهـ...ـ»[18].

والحاصل أن ابن تيمية «حرّض الناس على قتال التتار، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورَغَبَ في إنفاق الأموال في الذبّ عن المسلمين وبладهم وأموالهم»[19].

وَبَيْتُ قُلُوبَ الْأَمْرَاءِ وَالْمُقَاتَلَةِ، وَوَعْدُهُمُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ} [الحج: 60] وكان يحلف بالله إنكم منصرون[20]. وقد تحقق النصر ولله الحمد، فكان «السيف» يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهاراً، وأنهم هربوا وفرّوا واعتصموا بالجبال، ولم يسلم منهم إلا القليل»[21].

ومع هذه الشجاعة التي أظهرها ابن تيمية في جهاد التتار، والمنابذة الشديدة والمجاهدة العظيمة لهم، إلا أن بعض الجهال أتهموه آنذاك بالجبن[22]! وافترى عليه أشخاص وسُوّدوا عليه كذباً مزوراً: بأنه وآخرين يكاتبون التتار ويعينونهم[23]! لكن هذه الكذبات الصلعاء لا يلقي لها أبو العباس بالأ، لاسيما وأنه كثيراً ما يقول: أنا لا أنتقم لنفسي، وكل من آذاني فهو في حل[24].

لقد اعترى فئاماً من الناس الوجل والإجلال، والمهابة والإكبار لأولئك الهمج التتار، وكما قعد أبو العباس أن «كل ما عُظِمَ بالباطل يجب قصد إهانته»[25].

ومن ذلك أن التتار يغلون في جنكيز خان، ويعتقدون أنه ابن الله وأن الشمس حبت أمّه! فكذب أبو العباس ذلك البهتان، وبين أنه ولد زنا، وأن أمّه زنت فكتمت زناها، وادعّت ذلك حتى تدفع معرة الزنا[26]. وحرص ابن تيمية على إظهار هوانهم - كما في الرسالة القبرصية فقال: «فَأَذْلَلَ اللَّهُ وَجْنُودُهُ [يعني قازان والذين معه] حتَّى يَقِنَا نَضْرِيهِمْ بِأَيْدِينَا، وَنَصْرِخُ فِيهِمْ بِأَصْوَاتِنَا»[27].

بل حكى ابن تيمية مقالة وزير للتتار: إن واحداً منكم - يا أهل الشام - يغلب ستة من هؤلاء التتار[28]. وحكي - في موطن آخر - أن أولئك التتار شر الناس «فلا يتقوُن إِذَا قَدِرُوا، وَلَا يَصْبِرُونَ إِذَا ابْتَلُوا، فَهُمْ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ إِذَا قَدِرُوا، وَمِنْ أَذْلَلِ النَّاسِ وَأَجْزَعُهُمْ إِذَا قُهْرُوا، إِنْ قَهْرَتْهُمْ ذَلِّلَوْا لَكَ وَنَافِقُوكُمْ، وَحَابِبُوكُمْ وَاسْتَرْحَمُوكُمْ»[29].

وكما كشف أبو العباس عن عجز التتار وهشاشتهم، فإنه قد فضح المتصوفة الجبرية «الخوننة» والذين خرجوا عن الشرع المنزلي، وظاهروا التتار، فكانوا كما يقال «خفراء للتتار»[30] وأعواناً لهم! فقد تعلل هؤلاء الجبرية المشركية بالحجّة الدالحة بأنّ هذا الكفر ومناصرة التتار موافق لقدر الله ومشيئته! [31].

ولئن أحسن أبو العباس في مجالة التتار وجهادهم حتى لحقتهم تلك الهزيمة القاضية، فإنه قد برع في مدافعة ومحو الهزيمة النفسية التي جثمت على أهل الإسلام والسنّة منذ سقطت بغداد على يد جنكيز خان. فرحم الله أبا العباس ورفع درجاته في المهدّيين.

[1] ينظر: العقود الدرية لابن عبدالهادي (ت العمران) ص.5.

[2] الفتاوى 28/509.

[3] ينظر: الفتاوى 28/520، جامع المسائل 5/298.

[4] الفتاوى 28/520-28/525 باختصار، وينظر: الفتاوى 28/505.

[5] الفتاوى 28/546.

[6] الفتاوى 28/533.

[7] البداية 14/9.

[8] ينظر: البداية 14/14، 22.

[9] البداية 14/24.

[10] البداية 14/25.

[11] لعل مقصوده بالسلم ها هنا أي الإسلام الذي يدعونه، فهو أشبه بإسلام المنافقين.

- [12] الفتوى 28/506 .
- [13] الفتوى 28/541 . وينظر 28/546 .
- [14] البداية 14/89 . وينظر: البداية 14/9 .
- [15] بولاي من قادة التقار الذين حضروا لغزو الشام، قال الصفدي في أعيان العصر: « اسمه الصحيح مولاي، وإنما العامة يحرفوه تهكمًا به وأمثاله». .
- [16] ينظر: البداية 14/10 .
- [17] قطلو شاه نائب قازان. ينظر: البداية 14/9 .
- [18] الفتوى 617 /28 (القبرصية) .
- [19] البداية 14/14 .
- [20] ينظر: البداية 14/15 .
- [21] البداية 14/25 .
- [22] ينظر: البداية 14/24 .
- [23] ينظر: البداية 14/22 .
- [24] ينظر: العقود الدرية (ت العمران) ص326 .
- [25] اقتضاء الصراط المستقيم 1/477 .
- [26] ينظر: الفتوى 28/521 . وجامع المسائل 6/233 .
- [27] الفتوى 28/617 .
- [28] الفتوى 10/674 .
- [29] ينظر: جامع المسائل 5/306 .
- [30] لابن تيمية رسالة بعنوان: «جواب في الكفار من التتر وغيرهم، وهل لهم خفراء بقولهم لهم التأثير؟» ينظر: العقود الدرية ص91 .
- [31] ينظر: الفرقان بين الحق والباطل ص607-610، والفتوى 8/351 . 11/641 .